

الفصل السابع :

مكانة النبي ﷺ عند الله عز وجل

هل نَصَّبَ النبي ﷺ نفسه فوق موسى وعيسى؟

إن هذا المقال يعني عند أول وهلة طعناً في رسالة النبي ﷺ لأنه يناقض مفهوم النبوة والرسالة ، فالنبوة ليست ترشيحاً برلمانياً ولا انتخاباً رئاسياً ولا ملكاً وراثياً ، إن النبوة والرسالة اختيار واصطفاء من الخالق العليم لبعض من خلقه كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج ٧٥] .

لقد اصطفى الله سبحانه وتعالى من الناس أنبياء ومن الأنبياء رسلاً ومن الرسل أولي العزم وهم خمسة منهم : نوح ، إبراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد ﷺ أجمعين - وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَيَعْقُوبَ ابْنِ إِسْرَائِيلَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب ٧] ثم اختار الله منهم محمداً ﷺ ليكون أفضلهم ، هذا التفضيل الذي ليس فيه انتقاص من أحد أو ترفع عليه ، وقد أخبر النبي ﷺ بذلك إخبار المتواضعين فقال « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » ولم يسعه إلا الإخبار امتثالاً لأمره تعالى ﴿ وَأَمَّا يَنْعَمُونَ بِرَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى ١١] فحدث بنعم الله اعترافاً بفضله وإظهاراً لكرمه وقد أنزل عليه ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّخْمُومًا ﴾ [الإسراء ٧٩] .

فلا يجوز له أن يكتم علماً أو يستر فضلاً آتاه الله إياه ، وهل من سبيل لمعرفته إن كتبه النبي ﷺ؟ وإذا كان بيان العلم وتبليغه أمراً قد أوجبه الله على العلماء ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران ١٨٧] فهو في حق الأنبياء

أوجب ﴿ بِمَا تَبَيَّنَ الرَّسُولُ بَلَغَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغْتَ وَمَا كُنْتُ بِكَ فِيهَا مَبْعُوثًا ﴾ [المائدة: ٦٧] فالذي بلغ عتاب ربه له في قوله ﴿ مَا كَانَتْ لِيَنْهَى أَنْ يَكُونَ لَهُ أَمْرٌ حَتَّى يَشُورَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنفال: ٦٧] ﴿ وَمَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يُتَّبِعُوا لَكَ الْآيَاتِ سَدَّهَا وَقَتَلَ الْكُذِبَ ﴾ [التوبة: ٤٣] ﴿ بِمَا تَبَيَّنَ النَّبِيُّ لِمَ حَرَّمَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ مَرَضَاتُ أَرْوَاحِهِمْ وَأَنََّّهُمْ قَوْمٌ زَجِيمٌ ﴾ [التحریم: ١] ﴿ عَسَى وَتَوَكَّلْ ۝ أَنْ تَجِدَهُ الْأَحْمَرُ ۝ ﴾ [عبس: ١، ٢] .

وكان أشده عليه آية الأحزاب ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ أَمْسِكُوا عَلَيْكُمْ زَوْجَكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُجِيبُ دَعْوَانِ الْغَائِبِينَ ﴾ [الأحزاب: ٣٧] .

قالت عائشة رضي الله عنها : « لو كان النبي ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية » أبلغ النبي ﷺ ذلك كله ولا يبلغ ما أنعم الله عليه؛ ثم نظر كيف أبلغ وكيف كان يعامل الآخرين ، إن البشرية لم ولن تعرف عظيماً في تواضع كما كان النبي ﷺ ، لقد نهى أتباعه أن يفاضلوا بين الأنبياء على وجه يشعر بالتنقيص من شأن واحد منهم ، ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد » رواه مسلم .

فالله تعالى نهى أن يفخر أحد على عامة المؤمنين ، فكيف على نبي كريم؟ وقد قال النبي ﷺ « لا يبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » رواه أحمد والبخاري ومسلم .

وحذرهم من الغلو في كل شيء لا سيما في حبه ، روى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » وجاءه رجل ذات يوم وقد ظهر على وجهه علامات الخوف والهيبة فقال له : « هوّن على نفسك أنا لست ملكاً ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » .

إن أنبياء الله جميعاً متساوون في الحرمة فالكفر بأحدهم كفر بجميعهم وانتقاص واحد منهم مخرج من الإسلام وشعار المسلم تجاههم ﴿ لَا تَقْرُبُوا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البقرة: ٢٨٥]

[البقرة: ٢٨٥]

هل يعلم الناقمون على الإسلام أنه هو الذي دافع عن الأنبياء وكشف زيف المنتقصين وادعاءات الكاذبين فكشف اللثام وأزال الأوهام وأبان الحق وذكر الصدق وألزم أتباعه طريق التوسط والاعتدال لا إفراط ولا تفريط ، فدافع عن موسى ضد افتراءات بعض أتباعه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَدَّأرُؤْنَ قُبْرَاهُ اللَّهِ مِنَّمَا قَالَ أُولَٰئِكَ هُم بِآيَاتِنَا يُكْفِرُونَ ﴾ [الأحزاب: ٦٩] ونزه المسيح عن تمكُّن أعدائه منه وصلِّبه وقتله ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَّوْهُ وَلَٰكِن شَجَّوْهُ ﴾ [النساء: ١٥٧] ﴿ بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء: ١٥٨] .

إن النبي ﷺ الذي أخبره ربه عن شرف مكانته وسمو منزلته هو الذي أنزل عليه آيات بينات أخبرته أيضاً عن مكانة غيره من الأنبياء عليهم السلام فنزل عليه في شأن نوح ﴿ وَقَدْ نَادَيْنَا نُوحَ فَلَيِّنْهُمُ الْمُجِيبُونَ ﴾ [الصافات: ٧٥] ﴿ إِنَّهُ كَانَتْ مَعَنَا شُكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٠] وفي شأن إبراهيم ﴿ إِنِّي جَاءُوكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤] ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠] ﴿ وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم: ٣٧] ﴿ وَأَخَذَ اللَّهُ زَهْرَةَ حَبِيلَا ﴾ [النساء: ١٢٥] وفي شأن موسى ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَخْلُصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَدَيْتُهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْآيْمَنِ وَقَرَّبْتُهُ نَبِيًّا ﴿٥٢﴾ ﴾ [مريم: ٥١، ٥٢] وقال فيه : ﴿ قَالَ يَتُومَنِّي إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي ﴾ [الأعراف: ١٤٤]

﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ [الأحزاب: ٦٩] وفي شأن عيسى ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتُهُ الْقَلَمَ إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنِّي ﴾ [النساء: ١٧١] ﴿ وَجَعَلَنِي مَرَاكِبًا أَنْ مَآكُنْتُ ﴾ [مريم: ٣١] ﴿ السَّيِّدُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥] .

إن حياة النبي ﷺ كلها دليل على تواضعه وعدم ترفعه على أحد من الناس ، قال الله فيه ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ خُلُقِي عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] وقال عن رسالته « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » وقال : « نحن أحق بالشك من إبراهيم » رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة أي في طلبه من ربه كيفية إحياء الموتى ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ [البقرة: ٢٦٠] فنفى ﷺ أن يكون إبراهيم قد سأل شاكاً ، ولتأكيد هذا النفي عنه نسبة لنفسه افتراضاً لوقوعه .

وقال ﷺ « أكون أول من يُبعث فأجد موسى أخذاً بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أبعث قبلي أم جُوزي بصعقة الطور » رواه البخاري ومسلم . وقال ﷺ عندما عومل بجفاء شديد من أحد الرجال : « رحم الله أخي موسى لقد أودى بأكثر

من هذا فصر « صحيح الجامع . وقال ﷺ : « لو جاءني داعي يوسف لأجبتة » أي عندما جاءه رسول الملك يكلمه في شأن خروجه من السجن ، وقال النبي ﷺ : « الكريم بن الكريم بن الكريم بن يوسف بن إسحاق بن يعقوب بن إبراهيم » .

كيف يترفع النبي ﷺ على أنبياء الله ولم يترفع على مسكين أو فقير ، بل كيف يتسرب الكبر إلى نفسه وقد قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » رواه مسلم .

وهذه حياته وسيرته شاهدة على عظيم خلقه ، كان فراشه من آدم حشوه ليف ، لم يشبع في حياته من خبز ولحم إلا مع ضيوفه ، كان يبيت هو وأهله الليالي طويلاً لا يجيد طعاماً ، كان يمر الهلال واللال وما يوقد في بيته نار إنما طعامه وأهل بيته السودان – التمر والماء – قالت له زوجته عائشة رضي الله عنها ذات يوم ألا تأكل متكئاً ؟ فقال : « بل أكل كما يأكل العبد » وكان يبدأ من لقيه بالسلام ولو كان طفلاً ، كانت الأمة من إماء الأمة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ وتنطلق به حيث شاءت فيمشي معها لقضاء حاجتها ، وكانت الجوارى يأتين بالماء البارد في الشتاء ليضع يده فيه تبركاً به فما يرد أحداً ، ولم يكن أحد أحب إلى قلوب أصحابه منه ، وما كانوا يقفون له لعلمهم أنه يكره ذلك ، ولما دخل مكة فاتحاً متصراً دخلها محنياً جبهته وإن كادت لتمس ظهر راحلته تواضعاً لله رب العالمين في يوم الفتح والنصر العظيم قائلاً : « لا إله إلا الله وحده أنجز وعده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده » .

هذه لمحات عابرة من حياته وأقواله في عظمته وتواضعه ، فأين منصفو التاريخ والمتكلمون بالحق إن كانوا يريدون صواباً أو يفتحوا للحوار باباً لا تزويراً أو سُبَاباً ؟

